وليد الهودلي:
"ستائر العتمة"

ناقشت الندوة الفلسطيني رواية "ستائر العتمة " لوليد الهودلي، والتي صدرت طبعتها الخامسة العام 2005 عن المؤسسة الفلسطينية للإرشاد القومي في رام الله، وتقع في 176 صفحة من الحجم المتوسط.

جميل السلحوت:

يتحدث الكاتب في روايته التي بين أيدينا عن تجربته التي مرّ بها في التحقيق أثناء اعتقاله، وواضح مما هو مكتوب على الغلاف الأول أن هذه التجربة استغرقت تسعين يومًا من المواجهة الملتهبة، وقد وضع الكاتب روايته تحت خمسة عناوين، صال وجال فيها كيفما يشاء.

وهـذا الكتـاب يقودنـا إلى الحـديث، ولـو بـشكل سريـع، عـن أدب السجون، خصوصًا وأن السجن والتعذيب والاستشهاد والدماء النازفة والنفي والتشتت، أصبحت ملاحقة لأبناء الشعب الفلسطيني منذ انتهاء الحـرب العالميـة الأولى، والبـدء بتنفيـذ المـشروع الـصهيوني عـلى أرض فلسطين، وقـد تـصاعدت قـضية الـسجن والتعـذيب بـشكل لافـت، مـا جعلها ظاهرة صـاحبتها ظـواهر أخـرى لهـا تأثيراتهـا عـلى مجمـل الـصراع العربي- الإسرائيلي بعـد حـرب حزيـران 1967، مـا يـستدعي أن تخـضع للدراسة والتحليل من قبل المختصين، خصوصًا إذا أخذنا بعين الاعتبـار أن حوالي سبعمائة ألف فلسطيني من أبناء الضفة الغربية وقطاع غـزة، قـد تعرضوا للاعتقال والتحقيـق والتعـذيب، أيّ أنّ شخـصًا مـن كـل خمـسة أشخاص قد تعرض للاعتقال، وإذا ما استثنينا الشيوخ والأطفـال، فإننـا سنصل إلى نتيجة أن واحدًا من كل اثنين قد تعرض للاعتقال.

وإذا ما عدنا إلى رواية "ستائر العتمـة" لوليـد الهـودلي، فإننـا نجـد أنـه يتحدث فيها عن تجربته الشخصية في الاعتقـال والتحقيـق، لافتًـا الانتبـاه في الصفحة رقم 4 بقولة: " كتبت هذه الروايـة في وقـت غـيّر فيـه الكيـان الصهيوني أساليبه في التحقيـق مـن العنـف الجسدي والنفـسي إلى العنـف النفسي فقط، إلا في حالات خاصـة، تـستدعي اسـتصدار إذن خـاص بهـا لممارسته التعذيب الجسدي معها، وهذا التنويه يحمل في طياته أن التعذيب

الجسدي والنفسي كان يمارس قبل هذه المرحلة، وإن أخذ التعذيب الجسدي القسط الأكبر منذ الاحتلال في حزيران 1967 وحتى منتصف سبعينيات القرن العشرين، حيث كان المحققون يتفنّنون في التعذيب الجسدي للمعتقل، ما أدّى إلى وفاة البعض تحت التعذيب، وقد كنت شاهدًا على وفاة المرحوم قاسم أبو عكر من القدس تحت التعذيب في معتقل المسكوبية في آذار 1969، كما أن يد المعتقل مؤيد عثمان البحش من نابس قد خلعت من مكانها في تلك الفترة، ولم يعد ما يربطها في بقية جسده إلا الجلد الخارجي، وهناك معتقلون آخرون في تلك الفترة خرجوا بعاهات جسدية مستديمة جراء التعذيب الوحشي بالضرب المبرح باللكمات والعصي والشبح والكهرباء والانتقال من التعذيب الجسدي إلى التعذيب النفسي هي قضية غير دقيقة أيضًا، فربط المعتقل معني الجسد على كرسي صغير مع تغطية رأسه بكيس محكم الإغلاق لساعات طويلة هو تعذيب جسدي أيضًا، ووضعه في زنزانة أقصر من قامته واقفًا أو مضطجعًا هو تعذيب جسدي أيضًا، وترك المعتقل بلا طعام أو ماء، أو تركه يقضي حاجته في ملابسه يعتبر تعذيبًا جسديًّا أيضًا. واستصدار قرار من المحكمة العليا الإسرائيلية يجيز التعذيب في "حالات خاصة قضية تضع الإنسان أمام تساؤلات حول نزاهة وعدل هذا القضاء."

ووليد الهودلي في روايته هذه، التي يمكن تصنيفها تحت باب "الأدب التسجيلي"، يتحدث بإسهاب عن ألاعيب المحققين ومحاولاتهم تدمير نفسية المعتقل، لإجباره على الاعتراف عن أشياء ربما لم يقم بها، ولا يعرف عنها شيئًا.

كما أنه يتحدث عن قضية جواسيس الاحتلال الذين يدسهم مع المعتقلين كي يغرروا بهم ويأخذوا منهم اعترافات لم يدلوا بها للمحققين.

كما يتحدث عن محاولات خداع المعتقلين من خلال الإيقاع فيها بينهم برواية اعترافات زائفة على لسان بعضهم للإيقاع بالبعض الآخر.

إن وليد الهودلي في روايته هذه يفضح أساليب المحققين الإسرائيليين في التعامل مع المعتقل، في رسالة تحذيرية للآخرين كي لا يقعوا في مثل هذه الأحابيل.

غير أنه يؤخذ على الكاتب، والذي يبدو أنه كتب شهادته هذه بحماس زائد، قد وقع في بعض المطبّات والمبالغات اللغوية والتبريرية، والتي كان عليه تجنبها، منها ما جاء في نهاية الصفحة 11 وبداية الصفحة 12 على لسان عامر: "معتقل منذ أربع وعشرين ساعة، ولم أتشرف إلا بجولة تحقيق واحدة، أربع أو خمس ساعات من الأسئلة المتناثرة، ثم دفعوا بي إلى هذه الزنزانة". فعن أيّ شرف يتحدث الكاتب؟ وهل الجلوس أمام المحقق المخابراتي شرف؟! وهل يكتسب المعتقل الشرف من المحقق

الإسرائيلي؟! ومنها ما جاء في الصفحة 58 على لسان عامر أيضًا عندما قال له المحقق: "نحن نعرف عنك كل شيء.. ونعرف كيف تنام مع زوجتك.. ورد عامر بغضب أشد: أخرس .. أنت لا تعرف شيئًا.. أتحداك إن كان عندك شيء لا نعرفه.. أنا أحذرك.. إياك أن تقترب من العرض.. لم يبق لنا ما نستشهد من أجله غير العرض".

وبغض النظر عن مدى تجنيح الخيال في هذا الحوار، إلا أنه يقودنا إلى قضية أخرى، تحدث عنها الدكتور جلال صادق العظيم في كتابه "النقد الذاتي بعد الهزيمة"، والذي صدر بعد هزيمة حزيران 1967، وقال فيها بما معناه: إن مفهوم العرض عند الفلسطينيين أقوى من مفهوم الوطن. ومعروف أن المحققين الإسرائيليين يستغلون الثقافة الفلسطينية حول مفهوم الشرف والعرض عند الفلسطينيين، ويحاولون الضغط على المعتقل من خلالها. وهذه قضية يجب التنبه إليها كما أنه يجب تخطيها.

يبقى أن نقول إن هذا الكتاب شاهد على هذه المرحلة، ويشكل إضافة نوعية للمكتبة العربية بهذا الخصوص.

محمد خليل عليان:

الكاتب وليد الهودلي من قرية العباسية المحتلة سنة 1948 قضاء يافا.

– من مواليد مخيم الجلزون للاجئين الفلسطينيين سنة 1960.

- درس حتى الإعدادية في مدرسة الجلزون، وأنهى الثانوية العامة في المدرسة الهاشمية في مدينة رام الله.

- خريج معهد المعلمين التابع لوكالة الغوث في رام الله سنة 1980.

- مارس مهنة التدريس في الأردن من سنة 1980 ولغاية 1984. حيث عاد إلى أرض الوطن، ويعمل موظفًا في مصلحة مياه رام الله.

- شارك في فعاليات الانتفاضة الأولى وتم اعتقاله سنة 1990 ليحكم اثنتي عشرة سنة، حيث أطلق سراحه في 1/ 8/ 2002.

- تنقل في عدة سجون من سجون الاحتلال، وكان العمل الثقافي والتربوي صلب اهتمامه على مدار هذه الحبسة الطويلة.

- اهتم بكتابة القصة القصيرة والرواية، وكانت له الإصدارات التي غطت مساحة واسعة من تجربة الأسرى في سجون الاحتلال الإسرائيلي.

- متزوج من المناضلة الأسيرة عطاف عليان.

ترددت كثيرًا قبل أن أكتب عن هذا العمل؛ من أيّ زاوية أكتب؟ بالنظر إلى تجربتي الشخصية المتواضعة في الأسر- 10 سنوات- فقد تفاعلت كثيرًا مع أحداث الرواية. شدتني التفاصيل إلى الماضي البعيد. تألمت. توجعت. بكيت. تعاطفت. تضامنت. عدت إلى الماضي. استذكرت التجربة، وكم كانت دهشتي حين اكتشفت أن الأمس هو اليوم، وربما يكون الغد، ومن هذه الزاوية، وحيث أن التجربة واحدة

تتكرر يوميًّا، ومع كل واحد فينا، فإنني أقدر عاليا الجهد الكبير الذي بذله الكاتب في نقل دروس وعبر التجربة، محاولاً ترسيخ مفاهيم تغيب عن البعض منّا، وهي أن رجل المخابرات قابل للهزيمة، وأن المناضل قادر على الانتصار، مؤكدًا على الشعار الذي تجده محفورًا في جدران كل زنزانة "الشجاعة صبر ساعة".

ومن زاوية أخرى، وبعيدًا عن ما أثاره هذا العمل لديّ من ذكريات دفينة، وبالنظر إلى تجربتي المتواضعة في كتابة القصة وأدب السجون، فإنني أُوجه الملاحظات النقدية الآتية متوخيًّا الاختصار بقدر المستطاع، مع الاعتذار المسبق لعدم الاقتباس لدعم الفكرة و/ أو الملاحظة:

– أورد الكاتب أن النصّ كُتب في الوقت الذي استبدل جهاز الاستخبارات أسلوب التعذيب من جسدي إلى نفسي، ومن سياق الأحداث فهمنا أن المجموعة لم تكن مستعدة لهذا التغيير، وتفاجأت به. أولاً: كان الأفضل أن يذكر الكاتب "في فترة أحداث الرواية " وليس في فترة الكتابة عنه. ثانيًا: لم يكن هناك تغيير بالأسلوب لأنه قديمًا (بحسب تعبير الكاتب) كانت المخابرات تستخدم الأسلوبين معًا؛ التعذيب الجسدي والتعذيب النفسي. وقرار المحكمة العليا الإسرائيلية العام 1999 الذي يشير إليه الكاتب لم يحرم استخدام التعذيب الجسدي، بل أكد من جهة أن أساليب التعذيب التي قررتها لجنة "لينداو" تعتبر تعذيبًا،

ومن جهة أخرى سمح بها في حالات القنبلة الموقوتة، وترك لرجل المخابرات صلاحية تحديد الحالات التي يكون فيها المعتقل قنبلة موقوتة. وفي تقرير لمنظمة حقوقية إسرائيلية جاء أن ما يزيد عن 80٪ من المعتقلين الفلسطينيين اعتبروا في حينه قنبلة موقوتة، وتعرضوا للتعذيب على هذا الأساس. وقد لقي الجدل العام الإسرائيلي وتداعيات قرار المحكمة تغطية واسعة في الصحف ووسائل الإعلام الإسرائيلية والعربية، وكان يفترض بأفراد المجموعة وقائدها عامر العلم به والاستعداد له، أما التذرع بالمفاجأة فهذا قصور لا يغتفر.

- تتصف شخصية البطل في الرواية بالأنانية والغرور والتعالي، فهو يعتقد أن تجربته كاملة متكاملة، بل وفريدة من نوعها، وكثيرًا ما ردد الكاتب على لسان عامر كلمات مثل: تجربتي، خبرتي، صمودي، ذكائي، وقد ذهب أبعد من ذلك حين أكد أنه ليس هو الذي يكتفي بالمظاهرات وقذف الحجارة، مستهينًا بهذا النضال الشعبي الفريد تاريخيًّا، وأكد في أكثر من مناسبة أنه أكسب أفراد مجموعته بعضًا من خبرته وتجربته، ناهيك عن طريقته في تحدي رجل المخابرات كما لو كان في نزال بالسيوف (انظر: ص25).

- ردود فعل عامر لم تكن ردود فعل الإنسان الطبيعي النمطي في الأدب الواقعي، بل كانت مصطنعة ومفتعلة، وأحيانًا غير مبررة، ما جعل من شخصية البطل شخصية غير واقعية.

- لقد أكثر الكاتب من الجمل والعبارات بل والفقرات التي توحي لنا بأن صمود عامر كان فقط لأنه مؤمن بالله وبقضائه، ولأنه يسلم أمره لله الذي يمتحنه بهذه المحنة. لا يختلف اثنان بأن الإيمان بالله يشعر الإنسان بالطمأنينة حتى في أشد المحن، ولكن هناك عوامل أخرى للصمود لم يذكرها الكاتب ولو بكلمة واحدة، مثل حب الوطن والانتماء للقضية والشعب، والحرص على مصلحة أفراد المجموعة، وغير ذلك من الاعتبارات التي تدفع الإنسان إلى التحدي والصمود. وقد حاولت عبثًا أن أجد مبررًا للصمود لدى عامر غير الإيمان بالله فلم أجد، حتى أنه لم يستذكر أيّ تجربة للصمود، وهي كثيرة جدًّا غير تجربة بلال وتلفظه أثناء التعذيب بكلماته: أحد.. أحد. ماذا نقول عن الشيوعيين الذين صمدوا في زنازين التعذيب في الأردن والعراق وغيرهما؟

- عطفًا على الملاحظة السابقة، لم تميز شخصية عامر بين الصهيوني والإسرائيلي واليهودي فجميعهم أعداء الله، كفار قردة كلاب خنازير لا يؤتمن لهم جانب، حتى حركات السلام الإسرائيلية لم تنج من سهامه ووصفها بالمخادعة. أعتقد أن الكاتب بذلك يريد القول إن المعركة هي

دينية، وأن الإسلام في النهاية هو المنتصر. وفي تلميح له أدخل الكاتب المسيحيين في الصراع، فوصف فتاة الصليب الأحمر بقوله فتاة الصليب، وبهذا حسم الخير من الشر، فالمسلمون فقط هم الأخيار وما عداهم فهم أشرار.

- على الرغم من الإدعاء بالحذر والفراسة والذكاء، فقد كان عامر متسرعًا متهورًا في الحوار مع المحققين، فتطرقا إلى موقفه من اتفاقيات السلام، ومن المفاوضات، وأوسلو والاحتلال وغير ذلك، واستمع لهم طويلاً حتى أنه اعترف أنه كان معهم منسجمًا في غاية الانسجام، الأمر الذي لا يعقل في ظروف التحقيق العادية، فما بالكم في الظروف التي وصفها؟

-استخفّ عامر كثيرًا بالمحققين وبأساليبهم وأحابيلهم، وقد ذهب أبعد من ذلك حين قال على لسانهم، إنهم لا يقوون على هذا البطل العنيد، ويكون بذلك قد انتزع منهم اعترافًا خطيرًا بأن أساليبهم قد فشلت في تحطيم الرجل الذي يحمل فكرًا (انظر: ص71)، إضافة إلى عدم معقولية الحوار المنقول على لسان المحققين، فقد ارتكب الكاتب خطأ بنقل الحوار على لسانهم في الوقت الذي كان عامر فقط هو الراوي شخصيًّا أو على لسانه. وهذا يدفعني إلى القول إن هذا الحوار تحديدًا كان مقحمًا ومصطنعًا ولم يخدم المبنى العام للرواية.

- كان موقف عامر من الآخر موقفًا سلبيًّا وحادًّا، وأسقط موقفه من المحققين على الآخرين ما أوقعه في مأزق التعميم غير المبرر، حتى أنه وصف الطبيب الذي عالجه وشخّص حالته على نحو جيد، بل وانسجامًا مع رغبته، بالماكر والروسي العاطل عن العمل. وهنا حسب رأيي أهدر الكاتب فرصة البحث عن بذور الحب والإنسانية في الجانب الآخر، محاولاً تنمية هذه البذور والإفادة منها، كما فعل الأدباء الذين كتبوا عن موضوع مشابه (يوليوس فوتشيك- على أعواد المشانق).

- وقع عامر في أكثر من تناقض في الحكم على المحققين وخصوصًا عندما تعلق الأمر بزوجته؛ فتارة يقول إنهم لا يجرؤون على الاعتداء عليها، وتارة يقول إنه كان يتوقع منهم ذلك.

- كان عامر شكاكًا ومهووسًا من الناحية الأمنية، ومع ذلك فقد ارتكب حماقات كثيرة وخصوصًا في الحديث عن العصفور الأول، الذي قد لا يكون عصفورًا، بل أصرّ عامر على أنه عصفور، لأن إحساسه يقول له ذلك، ناهيك عن انفتاحه المبالغ به مع قريبه توفيق، الذي كاد أن يكون عصفورًا ورفاقه في الدرب إبراهيم ونبيل.

- في بداية الرواية تساءل عامر- ونحن معه- كيف تم اعتقال المجموعة على الرغم من كل هذه التجربة والحرص الأمني الشديد؟ وقادنا إلى حافة اتهام رفاقه بالاختراق الأمني، ولكننا فوجئنا في نهاية

القصة أن سبب الاعتقال سلسلة من الأخطاء ارتكبها هو نفسه، وأنه يعرف ذلك من البداية. وهنا أطرح سؤالين على وجه السرعة، الأول: أين التجربة التي طالما تباهى بها؟ والثاني: لماذا احتفظ بهذا التقييم حتى نهاية القصة موحيًّا لنا أنه لا يعرف، ويتوق للقاء إبراهيم ونبيل كي يعرف منهما سبب اعتقاله؟

- التساؤلات والإجابات التي طرحت عند لقاء المجموعة حول أسلوب التحقيق تنم عن الجهل، وعدم المعرفة بالجدل الذي أثارته أساليب التحقيق، وموقف محكمة العدل العليا. من الصفحات الأولى تبين أن المجموعة خطيرة جدًّا، ونفذت علمية عسكرية، أي أن هناك قنبلة موقوتة تبرر استخدام التعذيب الجسدي دون الحاجة إلى قرار المحكمة العليا، ولا أدري لماذا قال عامر إن المحكمة العليا لا تجيز التعذيب إلا بصعوبة بالغة، وإنها رفضت منح المحققين الإذن لاستخدام التعذيب ضده، فإما أن تكون معلوماته مغلوطة، وإما أنه لا يشكل قنبلة موقوتة على الرغم من أنه أوحى إلينا أنه ليس مجرد قنبلة موقوتة، بل بركان سينفجر.

- يصر الكاتب على وصف عمله بالرواية على الرغم من أنه لم يلتزم بأصول كتابة الرواية، فتارة كان يتحدث بضمير المتكلم، وتارة بضمير الغائب على لسان البطل دون مراعاة الترقيم، وقد ظهر ذلك ليس في

الفقرة نفسها، بل في الجملة نفسها (انظر: ص27 الفقرة الثانية)، وقد استخدم الكاتب الأسلوب التقريري، وأقحم رأيه في كل حدث، فهو لا يتركنا نحب هذه الشخصية أو نكرهها وفقًا لردة فعلنا من الحدث، بل يأمرنا بذلك ويوجهنا صراحة إلى الموقف الذي يريد. وأظهر الكاتب ضعفًا واضحًا وجليًّا في اللغة والوصف والخيال والصور الجمالية، واستخدم الكثير جدًّا من العبارات والكلمات الدينية دون سياق أو مبرر، وأكثر من الشتائم والذم والقدح والوصف القبيح المنفر. وفشل في عامل الزمن، فإذا كان الراهن في الرواية مشوهًا، فإنه لم يستحضر الماضي، ولم يتوقع المستقبل، ولم يفلح في شد القارئ إلى الذروة الفنية، فقد كنا نصعد ونهبط، ثم نصعد ونهبط بفوضوية، ودون مراعاة للوتيرة الطبيعية للأحداث. كما أن هذا العمل يفتقد إلى الحب والمشاهد الإنسانية التي تتجلى أكثر في لحظة الألم والعذاب، وبانعدام الحب ينعدم الإبداع.

- نحن أمام عمل لا يندرج، في رأيي، ضمن الأدب الواقعي أو التسجيلي، وبعيد كل البعد عن العمل الروائي، بل يمكن القول إنه تقرير طويل، مشبع بالأخطاء اللغوية، والمعلومات غير الصحيحة، والاستنتاجات المتسرعة، بل والمتهورة، والأنا المغرورة الفاضحة، والثقة القاتلة، والثقافة المشوهة، والنهاية التي لا نسمعها إلا في خطب صلاة الجمعة.

محمد موسى سويلم:

رواية تروي أدق التفاصيل لطريقة وأساليب نزع أو إجبار على الاعتراف بأي شيء مهما كان. استطاع الراوي سرد أروع أنواع الثبات والصمود في وجه المحتل، وغطرسة وتحايل المخابرات بوجهها القبيح جدًّا. صور الراوي مدى قدرة الإنسان المؤمن على انتزاع حقه المسلوب وإن غدًا لناظره لقريب.

كان هناك بعض التساؤلات منها:

- قضية العصافير. من أين جاء مصطلح (عصفور) للدلالة على العميل المتساقط في السجون؟ لماذا لم نقل غرابًا أو بومًا مثلاً؟ وذلك أن المثل قال: "مثل الغراب ينعق بالخراب". أو أن الكثير من التشاؤم من وجود البوم. كاتب كهذا يمكن أن يوضح سبب هذه التسمية.

- قضية توفيق ابن العائلة المحترمة والميسورة الحال، يستغرب الكاتب بأنهم عصفروه، أي جعلوه عصفورًا. هناك أتساءل: ما قصد الكاتب بأن توفيق ابن الحسب والنسب والجاه والمال مُنِع عن العصفرة، وهل أن قضية العصافير هي للطبقة الكادحة فقط.

على الرغم من هذا، فإن الرواية هي مذكرات من دفاتر الأيام التسعين التي عاشها الكاتب أو عاشها من روى له المذكرات في التحقيق بشكل جميل بسيط في اللغة، دقيق في المواقف، إلا أنها جميلة معبرة هادفة.

خميس غوشة:

كثير من الشباب الفلسطيني الذي خبر الاعتقال والتحقيق في الزنازين وأقبية المخابرات، سيجد فيها الكثير من تجربته الخاصة، فمن ضيق الزنازين ورطوبتها وقسوة المحققين وغلظتهم، إلى جميع وسائل التحقيق، سواء بالترهيب أو الترغيب، بالتعذيب النفسي والجسدي، وإحضار أفراد العائلة من أمّ أو أب أو أخت أو زوجة، وعمل بعض التمثيليات بهم كتمثيلية البنت في القصة، وقضية الإسقاط والتهديد بالإساءة إليهم بكل الوسائل إن لم يعترف المعتقل، وكذلك استغلال صحة المعتقل وعدم تقديم العلاج له كوسيلة ضغط عليه، والحرمان من النوم، وكل ذلك وأشياء أخرى لكسر إرادة المعتقل. وقد اعترف الكاتب في البداية أن الصراع هو صراع إرادات إلى أن أكد ذلك في النهاية، إضافة إلى أنه أيضًا صراع أدمغة وعقول.

وأستطيع أنا شخصيًّا أن أتذكر، إضافة إلى ما سبق، لعبة الطيب والشرير بين رجال المخابرات، وهي قصة طويلة، وأكثر ما ذكّرني وأرجعني إلى تلك الأيام هو جهاز كشف الحقيقة أو الكذب، ووجه الشبه الشديد بالأسلوب مع اختلاف تفاصيل الأسئلة، ومحاولة خبير إدارة هذا الجهاز بإظهار نفسه بأنه مجرد عامل على هذا الجهاز، ولا ينتمي إلى جهاز المخابرات، وشرح كيفية عمل الجهاز، ومحاولة المعتقل التذاكي

في محاولة خداع هذا الجهاز، وكيف أنه في النهاية لا يؤخذ كدليل في المحكمة ضد المتهم، ولكنه وسيلة لمعرفة المحققين إذا كان المعتقل يقول (الصدق) أو يكذب، حيث يستكملون التحقيق معه.

إنها رواية رأي المؤلف الذي يستطيع كل قارئ ولأول وهلة معرفة انتمائه إلى التيار الديني من كثرة الأدعية التي تشعرك أحيانًا، وكأنك تقرأ كتاب أدعية (الصفحة 78)، ولا يخفي أحيانًا حسن المزج بين التعبيرات القرآنية ووصف الحال (الصفحة 73)، حيث يصف نفسه أنه وجد نفسه مقيدًا بالأصفاد، وحيث يصف المحققين بعد فشلهم معه وقيامهم كأنهم كانوا حول سراب بقيعة حسبوا أن فيه ماء. وكذلك تشبيه يهود هذه الأيام بيهود بني قريظة وبني قينقاع، وهم سابقًا ولاحقًا يتآمرون على الدعوة الإسلامية. ولا يخفي أيضًا تشبيه الاعتراف للمحققين كالنزول من جبل أُحد إلى قاع الهزيمة.

لقد حاول الكاتب أن يكون واقعيًّا في النهاية من دراسة الأخطاء واستخلاص العبر، وممارسة النقد الذاتي، وكان في البداية مرشدًا وضع كل خبرته الاعتقالية في سبيل تعليم أعضاء خليته (إبراهيم ونبيل) ماذا ينتظرهم إن اعتقلا، وجميع مراحل وأساليب التحقيق- على الرغم من أنهما فشلا في ذلك، وأعتقد أنه قصد من هذه الرواية تعليم وتحصين كل من يعتقل، وخصوصًا قليلي الخبرة والتجربة.

لقد شرح الكاتب مراحل التحقيق معه بإسهاب، وكانت فيها أحيانًا تشبيهات ولمحات أدبية جيدة، على الرغم من أنه كان فيها الكثير من الإفاضة والتكرار، وقد كان فيها، على الرغم من جودتها، بعض الحيثيات والأخطاء اللغوية والطباعية.

ثم إنه في النهاية هنالك بعض الاستفسارات التي لم يعط الكاتب جوابًا عليها، منها مثلا: كيف ومتى وأين خرج نبيل من زنزانة عامر بعدما أحضروه إليه؟ وخرج بعدها عامر للتحقيق فلم يأت بعد ذلك على ذكر نبيل وأين ومتى ذهب؟

والملاحظة الأخيرة، فإن الكاتب ذكر أن عبد الصمد حريزات قد قضى في زنازين المسكوبية بالقدس (ص105)، فلم يوضح كيف أن المحققين في عسقلان قالوا له إن حريزات قد لفظ أنفاسه الأخيرة هنا في هذا المكتب على حد زعمهم (ص140).

حسن طه:

قسم الكاتب رواية إلى خمس أجزاء هي: تقلبات زنزانة، ومقالب التحقيق، ثم الزنزانة مرة أخرى، والصفقة، ثم ينهيها في الجزء الخامس في رحى السجن. تتحدث الرواية عن إحدى المجموعات الفلسطينية المنظمة بشكل فردي، يتم التحقيق معها بعد إلقاء القبض عليها داخل

غرف التحقيق الإسرائيلية، حيث تستعرض الرواية طرق مواجهتها، وتشير بوضوح إلى الأسباب التي قد يخفق فيها المناضلون الفلسطينيون بالاعتراف ببعض أساليب التحقيق التي يتم تعديلها بعد مفاوضات أوسلو "الانتفاضة الثانية "، وهو الزمن الذي تتحدث عنه الرواية. الرواية تلامس بموضوعية أساليب التحقيق التي ينتهجها المحققون الإسرائيليون في تحقيقاتهم مع الفلسطينيين، التي قد تصاحب اعتقالاتهم العشوائية، المبرمجة في بعض الأحيان. كما يطرح الكاتب ذلك، كما وتسبر عمق ذلك الإحساس الذي يتناوش المعتقلين داخل الزنازين بدقة، وكان الكاتب صاحب تجربة شخصية في الاعتقال. ولقراءة الرواية التي اتخذت أسلوبًا تشويقيًّا فذًّا- على الرغم من حدثها البسيط، وعقدتها الواضحة، وشخوصها البسيطة- لا بد من تحليلها والوقوف على بعض أركانها.

مكان الرواية

غرف التحقيق الإسرائيلية.. الزنازين.. حيث توفرت في هذه المساحة الضيقة مساحة كبيرة من الصراع الخارجي والصراع الداخلي، وانتقل المكان في أبعاده إلى مساحة أكثر عمقًا واتساعًا في ذهن القارئ.

زمان الرواية

يمتد زمن الرواية تسعين يومًا، قسّمت، كما ذكرنا، إلى خمس مراحل متداخلة ومتصلة، وكانت في فترة الانتفاضة الثانية، والتي جاءت

انطلاقتها نتيجة ترسبات وأحداث وعوامل سياسية كثيرة، لا يمكن اعتبار انطلاقها عملاً عشوائيًّا كما اعتبرها الكاتب على لسان شخصيته الرئيسة (عامر) أن اندلاع الانتفاضة كان ردًّا على دخول شارون إلى المسجد الأقصى. وقد خلق الكاتب المساحة الزمانية في الرواية من خلال الإشارة أثناء الحوار إلى الانتفاضة الأولى.. السجون في فترة تلك الانتفاضة.. روابي وتلال بير زيت.. شخصية عامر الذي يعايش تلك المساحة في زنزانة.. لكن كان أكثر ظهورًا أن هذه الإشارات جاءت لتدعيم موقف الشخوص النضالية في الرواية.

الشخوص

اعتمد الكاتب في روايته على عدد مبسط جدًّا من الشخوص، لكن هذا العدد المبسط كان مضخمًا نسبة إلى ما يمكن اختزاله من شخوص هامشية، فعامر الشخصية الرئيسة والمحورية التي تدور والشخوص حولها، وبقية الشخوص: إبراهيم ونبيل رفاق عامر في المجموعة. المحققون الإسرائيليون: داني، بنيامين، شلومو، إيلان. وشخصيات هامشية أخرى: توفيق، المحققة، العصفور، العصافير. يظهر في الرواية عدم اكتمال بناء هذه الشخوص، فهي ليست أكثر من عناصر مساعدة للشخصية المحورية، غير أن الكاتب في غير مرة يصيب بدقة ما يصبو إليه، وهو وصفه لإحدى الشخوص، ليؤدي من خلال هذا الوصف

هدفه المنشود وفكرته الأصلية، ففي وصفه لأحد المحققين الإسرائيليين (شلومو) يبتسم له ابتسامة صفراء أجاد نشرها على وجهه الأرعن؛ طوي، نحيف، أبرص الوجه، وله أنف مدبب ومندفع إلى الأمام، عيون خضراء، وصلعة تخبرك أنه تجاوز الأربعين. وفي وصفه للمحققة؛ مدهونة الوجه بألوان فاتحة، مكتنزة، بارزة العينين، دقيقة الأنف، تتكلف ابتسامة تظهر من خلالها أسنان بيضاء متفرقة كأنها زرع نبت في أرض نكدة.

هنا يظهر الكاتب كراهيته لشخوصه في وقت يفترض في الكاتب احتواء شخوصه واحتضانهم، وترك الوصف المساعد لذهن القارئ. موقف الشخصية سلوكها الروائي مكانها في إحدى الجهات.

تجدر الإشارة هنا إلى أنه ربما كان قبح الشكل أو جماله أمر لا يدعو إلى الحب أو الكراهية، مثال ذلك شخصية عاز يمودو، في "أحدب نوتردام" شخصية بالغ هوغو في رسم قبحها، لكن القارئ أحب تلك الشخصية.

كان واضحًا أن توصيف الشخوص نوع من الكلاشيهات الجاهزة، فقد بالغ الكاتب باصطناع تلك الشخوص، وترك لعاطفته اقتحام ظلالها أيضًا من خلال العمل ما ترك انطباعًا قد يقلب نية السحر على الساحر عند القارئ المتخصص، أو عند قارئ لا يميل إلى إحدى جهات الصراع.

أحداث الرواية

تعتمد الرواية حدثًا بسيطًا يخلو من تشعبات ومسالك بعيدة المدى تحمل معها القارئ إلى أجواء روائية يتوه فيها، ليعود في بحثه عن السارية كما هو حال الروايات النموذجية، لكن هذا الحدث، في بساطته، يحمل لذة تدغدغ عاطفة القارئ الفلسطيني، وخوصًا إذا كان القارئ صاحب تجربة أو تجربة مماثلة.

الأسلوب

اعتمدت الرواية على الحوار بشكل كبير، ما جعلها أقرب إلى النص المسرحي منه إلى الرواية، واعتمد الحوار على الكثير من الحشو الذي ساعد في إطالة زمن قراءة الرواية. وقد حمل المونولوج المكثف والسريع في بداية الرواية، حمل القارئ على استطابة التشويق والتلذذ في الصراع والمعاناة التي أراد الكاتب تسطيرها في روايته، وحسب رأيي، فقد كان الكاتب في تسطير مونولوجاته أكثر براعة وتفوقًا لذاته وللعمل، فقد وصف من خلال ذلك، الصراع النفسي للشخصية الرئيسة، عاملاً على مفاصل بالغة التأثير والحساسية، اختزل في الكثير منها حالة نفسية حادة وساخنة.

العقدة

استطاع الكاتب من خلال حبكة بسيطة أن يحملنا على قراءة الرواية على مدى ساعة ونصف تقريبًا، ويبدو أن الكاتب تلاعب برقة شديدة ومتناهية مع حبكته.

تظهر في الرواية مشكلة الراوي التي تعتبر إحدى الإخفاقات، فالكاتب ينتقل بين عامر (الشخصية الرئيسة) والراوي، فيقحم عامر تارة متحدثًا كراوٍ وليس كأحد الشخوص؛ مثال ذلك يأتي كثيرًا في سياق المقطع الأول من الرواية، وفي الصفحة (55) المقطع الثاني، يقوم الراوي بإثبات الأحداث وعرضها في ظل شفق التشويق والتحفيز الذي بدا الكاتب بتركيبه.

يمكن اعتبار الرواية، التي جاءت كسرد تجربة ذاتية لأحد المناضلين، قصة طويلة، جعلت منها رواية أشبه بروايات الجيب، التي نشر منها في فترة سابقة (في الانتفاضة الأولى) مثل هذه الرواية كقصص عبد الله عيسى، ومازن الفحماوي، وفدائي في المخابرات الإسرائيلية.

(القدس 7/ 2007)